مجلة المرابط

العدد : ٢٠٨ الموافق في ذو الحجة ١٤١٩ هجري ٤ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : حرب بلا نهاية ضد العراق ! عقوبات قاتلة *	ترجمة : أبو إلياس

بداية ، أود أن أشكر صاحب هذا المقال السيد دينيس هاليداي (Denis Halliday) الذي كان المسؤول عن برنامج المساعدات الإنسانية للعراق تحت إشراف منظمة الأمم المتحدة . ولقد نشر هذا المقال في المجلة الفرنسية " اللومند الدبلوماسي " (Monde diplomatique) عدد يناير ١٩٩٩. كما أشكره على موقفه الشجاع عندما استقال من أعماله احتجاجاً على العقوبات المفروضة على العراق .

توطئة :

إن العقوبات المفروضة على العراق ما تزال تدمر شيئاً فشيئاً الشعب العراقي وذلك على الرغم من مرور ٨ سنوات عليها ، وعلى الرغم من أن النظام العراقي لم يزدد من خلالها إلا تمكناً . فهل تهدف هيئة الأمم المتحدة إلى تعذيب الشعب بأكمله ؟

إن العقوبات المفروضة على العراق ، التي قررها مجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة ، يمكن اعتبارها حرباً غير معلنة ؛ فبالنسبة للشعب العراقي النتائج هي نفسها : نفس التدمير لمعنوياته ، ونفس الرهان على مستقبله . لست خبيراً في شؤون العراق ، ولكن ـ لحسن أو لسوء حظي ـ ، أتيحت لي الفرصة لأرى بأم عيني نتائج هذه العقوبات ، وذلك خلال مقامي هناك خلال ١٣ شهراً وحتى فاتح أكتوبر ١٩٩٨ ، كمنسق مبعوث من طرف هيئة الأمم المتحدة في إطار برنامج " المساعدة الإنسانية " .

لقد عملت بتعاون واسع النطاق مع وكالات الأمم المتحدة الموجودة في العراق ، والتي كانت مع فريقي مسؤولة عن البرنامج المعروف بـ" البترول مقابل الغذاء " . في وسط وجنوب البلاد كنا نعمل مع الجهات العراقية الرسمية . وفي الشمال ـ في كردستان ـ كنا نقوم بشكل مباشر عل توزيع المواد الغذائية . بهذا الشكل كان بإمكاننا تزويد السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة بكل المعلومات .

منذ عودتي لاحظت أن أغلبية من أتحدث معهم ـ من صحفيين وجامعيين ومسؤولي المنظمات غير الحكومية ، الخ ـ لا يقدرون حجم الخسائر التي أصابت البنية التحتية المدنية للعراق خلال قصف ١٩٩١ . لا يكادون يتصورون أن الكثير مما دُمِّر لم يستطع العراق إعادة بنائه منذ ذلك الحين ، وذلك نظراً لنقص عائدات البترول وبسبب العقوبات المفروضة والعزل الذي طال العراق .

في بغداد الذي يذهلك أولا وقبل كل شيء هو خراب المدينة : الشوارع وَسِخة ، القمامة في كل مكان ، مجاري المياه القذرة تفيض هنا وهناك ، المساحات الخضراء أصبحت رمادية ، المنازل مهدمة ، بالإضافة

إلى قطع أرضية مهجورة . بكلمة : كل ما يرمز إلى الأفول والإهمال . البلدية لم يعد بمقدورها تشغيل عدد كاف من العمال للسهر عل نظافة المدينة ولا تعويض التجهيزات المعطلة .

أما شبكة المواصلات فقد دمرت ، و الخطوط الجوية الداخلية التي كانت بالأمس جد نشطة لم تعد تعمل ، و القطارات نحو البصرة أو الموصل بنوافذها المكسرة لم تعد تشتغل بشكل منتظم ، أما الحافلات فهي جحيم لا يطاق بسبب اكتظاظ الركاب و مراكز البريد والبنوك معطلة . الماء الصالح للشرب لم يعد يسيل من الصنبور ، والبطالة ضربت نسبة خيالية من السكان ، إذ المعامل قد دمرت ولم يعد بالإمكان استيراد المواد الأولية . في بغداد فقط يقدر عدد الأفراد الذين لا يملكون حداً أدنى يمكنهم من العيش الكريم ما بين ٥ و ٦ ملايين فرد .

أطفال في الشارع .

والذي يحير أكثر - بعد ذلك - هو تلك الجهود التي يبذلها الشعب ليصمد أمام هذا الوضع ؛ فبإمكانك مشاهدة بعض الأطفال ، من ذوي العائلات الميسورة ، يذهبون إلى المدارس حاملين معهم لعبهم التي يبدو عليها علامات الكآبة . كما تجد لوحات خشبية فوق صناديق عتيقة وقد عرضت عليها ألوان من البضائع ، لكن لا يستطيع أن يقترب منها ذوو الدخل المحدود أو جمع الفقراء الغفير . تجد كل شيء : السجائر- يمكنك شراءها بالتقسيط إن كانت إمكانياتك المادية محدودة - وكذا أحذية من البلاستيك ، وفي بعض الأحيان من جلد مغشوش

وتجد خلف الشاحنات مجموعات من الزبائن ، تحت حرارة الشمس اللافحة ، ينتظرون بفارغ من الصبر دورهم لشراء اللبن و الجبن أو الحليب . في مدينة بغداد القديمة ، قرب السوق ، تجد الناس يتخاصمون عند بائعي الماء ، وعند بائعي الخبز وكذا عند بائعي الكتب . نعم ! الناس يبيعون كتبهم الخاصة لشراء الطعام والدواء وبعض الحاجات الضرورية الأخرى . كما يمكن أيضا مصادفة أطفال بعثهم آباؤهم للتسول أو شيوخ يطلبون ، باستحياء شديد ، بعض النقود . في هذا المجتمع الأبي ، الناس يستهجنون التسول . فعلى سبيل المثال ، عندما أدفع أحياناً بعض النقود ، يعيب علي ذلك بعض العراقيين ؛ إنهم لا يستسيغون رؤية متسول يُوقِف أجنبياً طلباً للمساعدة . وهناك عند الضوء الأحمر ، الذي يكون معطلًا في أغلب الأحيان ، يمكن مشاهدة أطفال من ٤ إلى ٥ سنوات يغامرون بأصابع أرجلهم -إن لم يكن بحياتهم كلها- يتسولون عند نوافذ السيارات .

إلا أن أطفال بغداد لا يعوزهم فقط الغذاء ، وإنما يحتاج أغلبهم أيضاً إلى ملابس نظيفة ومسكن محتشم وماء صالح للشرب . إنهم لا يستطيعون مجرد الحلم بحياة مع حد أدنى من العناية الصحية ، وضمان غذاء

بشكل منتظم ومتوازن ، مع إمكانية ذهاب الأطفال إلى المدرسة بدلاً من العمل أو التسول . ولقد نجم عن ذلك بروز ظاهرة الانحراف في صفوف بعض الأطفال ، وهي ظاهرة جديدة نسبياً ، مما يستدعي ، عند اقتراب الليل ، إغلاق المدينة القديمة وكذا دور الشاي والدكاكين . ويقدر عدد الأطفال الذين غادروا المدرسة بـ ٣٠ % مع العلم أن نظام التعليم الرفيع والذي كانت تفتخر به العراق ، كان يغطي في الثمانينات كل البلاد . نفس النسبة من الأطفال يعانون من سوء التغذية مع كل ما يترتب عن ذلك من أضرار صحية ، جسدية وعقلية .

يسود في كل مكان جو من اليأس والتحطيم المادي والمعنوي . إنك لتلمسه أينما حللت حتى في المستشفيات نفسها . فأول ما يثير روعك وأنت تدخلها : الوسخ ، والأجهزة غير الصالحة للاستعمال ، و الأسِرَّة المتمايلة ، و الأغطية المنعدمة ، ... على الرغم من أن الأطباء لم يستسلموا لليأس ، فهم معرضون نفسياً لضغوطات شديدة بحكم أنهم يكونون أحياناً مضطرين للحسم في أمور خَطِرة : لمن يوصف هذا الدواء النادر جداً ؟ لمن يقدم هذا العلاج الحيوي من بين عشرات المرضى ؟ من يُتْرَكُ يستسلم للموت ، ممن لا يرجى برؤهم ، لصالح من نأمل أن يبقى على قيد الحياة ؟ الموت الذي يمكن تفاديه بسهولة أصبح في هذا البلد حقيقة معيشة .

إن برنامج "البترول مقابل الغذاء" الذي شرع فيه عام ١٩٩٦ أدخل تغييرات إيجابية ؛ فقد سمح باستيراد ٨ ملايين متر مكعب من الغذاء والأدوية . و الوزارات والوكالات العراقية المعنية تسهر على حسن سيره . وذلك عبر ٥٠ ألف مراقب يسيرون عملية التوزيع عبر كل البلاد . إن مراقبي الأمم المتحدة لم يسجلوا أي تحويل في توزيع الأغذية والأدوية . ولعل غياب المجاعة في هذا البلد خير دليل على نجاح أعمال الجهات الحكومية [...] إلا أن هذا البرنامج وإن كان حيوياً بالنسبة للشعب ، إلا أنه لم يسمح بتوفير المال لإعادة البنية التحتية للبلاد (أجهزة الماء الصالح للشرب ، قنوات المياه القذرة ، الكهرباء ، المستشفيات ، الخ) .

بعد ثمان سنوات من العقوبات والتي يصحبها تهديدات أمريكية بالقصف من حين لآخر ببعض الصواريخ ، يسود في كل مكان شعور كبير بنوع من الحتمية والقدر الذي لا مفر منه . وغياب الأمل يسري في كل مكان ؛ فالشباب لا يجدون عملاً يوافق تكوينهم وأصبح غضبهم واغتياظهم أمراً ملموساً . وهناك أطر كثيرة غادرت البلاد للعمل في الخارج ، الشيء الذي سيكون له انعكاسات خطيرة على المدى البعيد في إعادة بناء البلاد . بل حتى إمكانية الخروج هذه لم تعد ممكنة ، إلا نادراً ، بالنسبة للخريجين الجدد . والنساء اللاتي اكتسحن مختلف المرافق إبان الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) ، بدأن يفقدن عملهن لصالح الرجال ، ودورهن في المجتمع بدأ يتراجع . وكثير منهن ينهكن كامل قواهن في المعامل لضمان بعض المال .

تعذيب شعب بأكمله .

وماذا عن الديموقراطية ؟ بعيداً عن أوهام بعض الأنظمة ، نقول : إنه لم يعد هناك أي مجال ملائم للديموقراطية في ظل نظام العقوبات . أولئك الذين كان بإمكانهم أن يناضلوا من أجلها قد رحلوا ، ومن بقي منهم لا يفكر إلا في مصارعة الموت ومضاعفة الأعمال لتوفير بعض الأكل لعائلاتهم الصغيرة والكبيرة . والمثقفون - وبشكل خاص من سمحت لهم الفرصة بالدراسة أو الذهاب إلى الخارج - يعيشون حالة غيظ شديدة ، ويشعرون بمرارة أنهم منبوذون وغير مرغوب فيهم ، لا من طرف الولايات المتحدة ، ولا من طرف أوروبا ، بل ولا حتى من طرف بعض جيرانهم العرب .

النظام السياسي ، الذي ينظر إليه في الخارج على أنه "متطرف" ، أصبح ينظر إليه الكثير ، داخل العراق ، على أنه معتدل بشكل مبالغ فيه . يعاب عليه كون أنه بالرغم من ٨ سنوات من العقوبات ما يزال يواصل البحث عن حل وسط مع الأمم المتحدة . ولقد عبر الكثير من العراقيين عن خيبة أملهم بعد ما ألغى الرئيس صدام حسين قرارات أغسطس وأكتوبر ١٩٩٨ القاضية بتجميد تعاونه مع هيئة "إنسكوم" (UNSCOM) ، الهيئة المكلفة من طرف الأمم المتحدة بتجريد العراق مما يملكه من السلاح . فكما بيَّن أحد الوزراء ، فإنه حتى بدون ضربات عسكرية ، فإن العقوبات تقتل ٨ آلاف شخص شهرياً . إن العزة القومية جعلت البعض -بشكل خاص ضمن حزب البعث الحاكم- يرى أن على العراق وقف أي تعاون مع الأمم المتحدة وبالمقابل عليه النداء بتضامن العالم العربي والإسلامي لتوفير الغذاء والأدوية وبعض المواد الضرورية الأخرى . قبيل عودتي من بغداد بيوم قال لي أحد الوزراء : إن أولاده هو بعينه لاموه عل فكرة البحث عن حل وسط مع الأمم المتحدة .

إن العقوبات تولّد التعصب وبإمكانها أن تُفضي إلى صعود التطرف السياسي . إن هذا الخطر كثيراً ما يستخف به في الخارج ، وذلك على الرغم من انتصار الطالبان في أفغانستان ، وعلى الرغم من دروس التاريخ التي يشهد لها صعود النازية في ألمانيا عقب معاهدة فِرْساي .

ما العمل إذاً والعلاقات بين الأمم المتحدة ، "الإنسكوم" والعراق لا تزداد إلا سوءا ؟ إن الذين يعارضون رفع العقوبات عن العراق يؤكدون أن صدام حسين هو المسؤول الوحيد عن هذا الوضع وأنه وحده يستطيع رفع هذه العقوبات ، وذلك بالاستجابة الكاملة لمطالب " الإنسكوم " . ويضيفون : " أوَ ليس هو الذي يبذر الأموال الطائلة لبناء القصور ؟ " . نعتقد أن هذا التحليل جد مُبَسَّط . لقد أصبح الشعب العراقي يائساً من الوضع بعد ٨ سنوات من الآمال الكاذبة وعدم الإخلاص ، إنْ في بغداد أو في " نيويورك " على حد سواء . إن الإمعان في تشويه صورة صدام حسين لم يزد النظام العراقي إلا تمكناً ، ولم يزد شخص صدام إلا شعبية ومهابة في العالم العربي والإسلامي .

إن الضربات العسكرية وفرض العقوبات الاقتصادية وعزل العراق لم ينتج عنها أي تغير إيجابي . لقد تَبَيَّن أن العقوبات خيار قاسٍ وغير إنساني . قد نكره الرئيس صدام حسين ، ونكون محقين في ذلك ، ولكننا في الوقت ذاته لا نستطيع أن نجد في وثيقة الأمم المتحدة أي بند يبيح قتله أو يبيح العذاب الذي يذوقه شعبه . لقد آن الأوان أن نضع جانبا المخططات التي تستهدف مزيدا من تَعْنِيفِ هذا البلد ، أو قتل قياداته ، أو ترمي إلى أي هدف آخر غير منصوص عليه في مواثيق الأمم المتحدة . لقد آن الأوان لفتح حوار حقيقي من شأنه أن يضمن لدول الخليج مستقبلا أكثر أمنا .

(*) كُتب المقال في جريدة " Le Monde Diplomatique " قبل القصف الأمريكي البريطاني الأخير.